



Mokhtar Rahab

► To cite this version:

Mokhtar Rahab. . Les mutations de la ville saharienne – Approches croisées sur le changement social et les pratiques urbaines, Faculté des Sciences Sociales et Humaines-Université Kasdi Merbah, Ouargla., Mar 2015, Ouargla, Algeria. <halshs-01235959>

HAL Id: halshs-01235959

<https://shs.hal.science/halshs-01235959>

Submitted on 10 Dec 2015

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire HAL, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.

المدينة الصحراوية الجزائرية وتأثير التغيرات على الهوية والذاكرة الحضرية

رحاب مختار

جامعة المسيلة

مقدمة:

لقد شهدت المدينة في الجزائر على اتساع وتنوع جغرافية البلاد تغيرات في المشهد العمراني، وتحولات في المجال الحضري، حيث أصبح الجو السائد فيها، وطبيعة التفاعلات اليومية في مجال المدينة يؤشران بوضوح إلى عنف التغير والتبدل الحاصل، وما نتج عنه من عوائق ومشكلات عديدة أثرت على الإنسان وشكلت التحدي أمام سياسات التخطيط والتهيئة الحضرية. إن مشكلات المدينة في الجزائر خصوصا في العقدين الأخيرين من القرن الماضي ومطلع القرن الحالي إن كان يشكل وضعا متأزما ملحوظا، فإنها من جهة أخرى تؤثر على تحولات عميقة مست المجتمع الجزائري في زمن الحداثة والعولمة، ولعل هذا الأمر يمثل قاسما مشتركا لبلدان المجال الثقافي المشترك من تيطوان إلى بغداد.

و تسهما الأنتروبولوجيا الحضرية بنصيب وافر في تطبيق المناهج الانتوغرافية في دراسة البيئة الحضرية، وذلك من خلال التركيز على الوصف والتحليل والتفسير للخصائص والسمات الخاصة بالمجتمع الحضري المحلي، وعليه فقد وصل الأنتروبولوجيون إلى درجة عالية من الكفاءة في استخدام تلك المناهج مستعينين في ذلك أيضا بالبيانات والطرق الإحصائية والكمية والانتفاع بها في مجالات الدراسة والتطبيق.

وفي ضوء ذلك يستطيع الأنتروبولوجيون الحضريون أن يقبلوا ويقدموا أنماطا بنائية للتحليل موجهة في الأساس نحو البناء الحضري الكلي، وإن كانت في أساسها تهتم بمجتمعات أو مناطق حضرية بعينها، وقد وجدت مداخل متعددة للتحليل والتفسير فيما يخص الحياة الاجتماعية بأبنيتها وتنظيماتها المختلفة وتفاعلاتها داخل المدينة، وإيكولوجية المدينة، إضافة إلى التركيز على دراسة الحياة الثقافية للمدينة وما تشتمله من أنساق متباينة، والسعي لتحليل وتفسير والحياة الحضرية باعتبارها نسقا من القيم والتوجهات السلوكية، التي تطرأ على الإنسان الحضري في ضوء أنساق التنشئة والتربية والتثقف.

المدينة والتحولات: عرض للمفاهيم والتعريفات

المدينة:

لقد كان الحديث عن المدينة ضاربا في الزمن الماضي منذ زمن الحضارات القديمة، حيث نجدها متضمنة في التراث الاجتماعي للفلاسفة والمفكرين من زمن الحضارة اليونانية حتى عصر الثورة الصناعية، فنظر الفلاسفة ومن بينهم أفلاطون إلى أن نشأة المدينة سببها الرئيس هو عجز الفرد عن سد احتياجاته بنفسه، ومن ثمة صار اجتماع شركاء متعاونون في مكان واحد ضرورة، ومن خلاله يشكلون مجتمعا يسمى "Polis" أي "مدينة".

وظل تحديد مفهوم المدينة في تطور وتحول إلى أن صيغت لها تعريفات معاصرة لا تقتصر على النظر للمدينة كبناء مادي

عمراني، أو مجال حضري، وإنما صار ينظر للمدينة على أنها وحدة تتداخل فيها أبعاد أساسية ثلاثة، ويستمد كل مكون من هذه المكونات الثلاثة دلالاته التفسيرية في اتحاده وارتباطه مع المكونين الآخرين: البعد المكاني، البعد الأيكولوجي، والبعد السوسيولوجي، وهذا الذي يصوب النظرة الكلاسيكية تجاه المدينة التي ترى هذه الأخيرة على أنها بناء ماديا ومعماريا فقط، بل المدينة تمثل إطارا

بشرى وماديا وعمرانيا وإطارا تنظيميا واجتماعيا، ويتشكل من خلال التساند بين هذه الأطر نسيج حضري يساهم ويؤثر في تشكل نوعية الحياة بالمدينة.¹

التحولات

إن الاجتماع منذ بداية نشوئه اهتم بدراسة ظاهرة التغير لدى الإنسان، ومازال منكبا على دراستها، ولما كان هذا العلم الفتي متضمنا مدارس واتجاهات متباينة في دراسته للمجتمع وما يدور فيه من تحولات وتغيرات وتطورات، بدء بالمجتمع الإنساني وانتهاء بسلوك الفرد، فانه قام بدراستها من عدة زوايا لم تكن في وقت واحد بل حسب تطوره كعلم وطبقا للمؤثرات التي أثرت فيه مثل العلوم الصرفة في بداية نشوئه، والعقائد السياسية التي أفرزتها الثورات الأوربية والأمريكية والثورة الصناعية وتطور الفكر السوسيولوجي وآلياته المنهجية، برزت مشكلات حضرية تفاقمت في المجتمعات المتمدنة بعدها تأثر بالتطورات الثقافية وآخرها تأثره بثورة الاتصالات الحديثة والعولمة التي بلورت تغيرات ثقافية وعلائقية جديدة بين الأفراد بغض النظر عن مواقعهم الجغرافية أو أعرافهم العنصرية أو ثقافتهم الفرعية أو دياناتهم.²

أما بالنسبة لعلم الإنسان أو الأنثروبولوجيا، فهذا العلم ينظر إلى المجتمع على أنه في تغير دائم، لذا فانه يدرس المجتمع في مرحلة معينة من الزمن، والتغيير فيه موجود دائما، فأما أن يكون تغييرا بطيئا لا يعيه الملاحظ العادي، أو سريعا جدا بحيث يصبح من الصعب التحدث عن تنظيمات ثابتة.³

تخطيط المدينة وخصائصها في المغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامي:

لقد اختلفت الدوافع والأسباب التي من أجلها أنشئت المدن الإسلامية في بلاد المغرب العربي، فمنها ما أنشئ بدافع أن يكون عواصم سياسية، وارتبط إنشاء مدن العواصم باعتبارات سياسية مباشرة تحقق هدف الاستقرار في فترة التأسيس، وتكون منطلقا لتحقيق الأهداف السياسية التي ترمي إليها الدولة، ومنها ما بدأ على هيئة معسكرات حربية، ثم تطور إلى هيئة مدينة من هذه المدن، ومنها ما نشأ ونما مرتبطا بعوامل دينية، كالمدن التي أسسها الأسر الشريفة، والأسر المرابطية. ومن بين الشروط الرئيسية لإنشاء المدن في الحضارة العربية الإسلامية كما دونها مجموعة من المعماريين والمؤرخين نذكر منها: أن يسوق إليها الماء العذب، أن تتجز شوارعها بقدر مقاسي مضبوط حتى تتناسب ولا تضيق، أن يقام فيها جامع للصلاة يتوسطها ليكون على مسافة متقاربة واحدة من ساكنيها، أن يقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب، أن يميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أصدادا متباينة مختلفة، أن يحوطها بسور، أن ينقل إليها من الصنائع بقدر الحاجة لسكانها، وإن أراد سكانها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه كنفا له في سائر جهاته.⁴

وإذا ما أمعنا النظر في تخطيط المدينة الإسلامية في بلاد المغرب، فيمكننا القول أن المدينة الإسلامية ليست مجموعة من المباني والمنشآت والطرق، أو مكانا لتجمع البشر، ولكنها تعبر عن التفاعل الحقيقي بين الإنسان والمكان الذي يقيم فيه، ويعكس أطرا فكرية معينة تعد من خصائص الزمن الذي قامت فيه، ولذا استمدت المدينة الإسلامية ماهيتها وشخصيتها من تطبيق المفاهيم

¹ أحمد النكلاوي، النظرية في تخطيط المدن في: دراسات مصرية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، 2002، ص 126.

² معن خليل عمر، التغيير الاجتماعي دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004، ص 36.

³ معن خليل عمر، نفس المرجع، ص 40.

⁴ ابن أبي الربيع، سلوك الممالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي، دار الأندلس، 1981، ص 192.

الإسلامية على الواقع البيئي، سواء في ذلك مواضع المدن نفسها التي كانت موجودة أصلاً، أو تلك الأمصار المفتوحة التي عريت، أو المدن الجديدة التي أنشأها المسلمون لتكون قواعد لهم في البلاد التي فتحوها، فالإسلام في جوهره ديناً حضرياً، لا يتنافى والحياة الحضرية المتطورة والمتغيرة، فالفقه الإسلامي كان دوماً مواكباً وموجداً للحلول ومشكلات حياة الإنسان في الحواضر، أو بمعنى آخر أن الإسلام دين مدن، وشهدت الحضارة الإسلامية على مدارها الزمني إنشاءً وقيام مدن وحواضر شكلت أمهات المدن وأدت دوراً مهماً خلال التاريخ الإسلامي كله، وعكست مظاهر الحضارة الإسلامية المميزة⁵.

لقد انعكست منطلقات الدين الإسلامي سيما ما تعلق منها بالكيانات الخمس كحفظ الدين والنفس والمال والعرض في منجزات العمارة وتخطيط المدن، وإقامة المراكز الحضرية، حيث تم تقسيم أجزاء المدينة إلى ما هو واجب وضروري كالمساجد، ومراكز العلم والمعرفة ودور الصحة أو كما سمي بالبيماريستانات، وكذا حصون وقلاع الحراسة براً وبحراً، وكذا الجسور وقنوات إيصال المياه، ومن المباني ما كان مندوباً كالأسواق مثلاً، ومنها ما كان مباحاً مسموحاً بالمساكن والمتاجر، ومنها ما كان ممنوعاً محرمًا كدور البغاء والجنات.

وكانت المصادر التراثية حول العمارة الإسلامية وجغرافية المدن قد بينت أن خطة المدينة الإسلامية تتكون من خمسة عناصر رئيسية وهي: المسجد الجامع، مقر ولي الأمر والقاضي، السوق، الأحياء السكنية، الأسوار والبوابات. هذا بالإضافة إلى التوابع الأخرى التي سجلت حضوراً قوياً وبصور إبداعية رائعة كالساحات والبساتين والميادين.

وجسدت سياسة عمرانية لتنظيم العلاقة بين التكوينات المعمارية بما يحقق الفائدة، ويمنع الضرر بصوره المختلفة، ووجهت المباني في المدينة توجيهها خاصاً يتفق مع أحكام الدين الإسلامي وقيمه، ومن ثم تميزت التكوينات المعمارية للمدينة الإسلامية ومنها الأسوار، والمسجد الجامع، وقصر السلطان، والدواوين الملحقة به، والأسواق، والمراكز الثقافية، ومراكز الخدمات الصحية، والمساكن وغيرها، بميزات خاصة تكررت ملامحها في المدن الإسلامية على اختلاف مناطقها وعصورها، الأمر الذي نتج عنه تشابه معماري رغم بعد الجغرافيا بين هذه الحواضر وساكنيها⁶.

العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتحول في بنية المدينة الجزائرية وظائفها:

إن التحول الديموغرافي والضغط العددي المتزايد وإعادة الهيكلة الاقتصادية وانهيار البنى الاجتماعية القديمة وتحديث ظروف تنقل البشر والمنتجات والمعلومات وأنماط الاستهلاك الجديدة والتوريد المخصص إلى الدعم الغذائي، كل هذه العناصر من بين أخرى رافقت السكان خلال طور تحضر استثنائي ضاغط وغير متحكم فيه. لقد تمت باستمرار تغذية الحركية الديموغرافية للسكان الحضر باستقرار عائلات ريفية بالمدينة وهي عائلات واثرة لسلوك غير ملتوسي ولممارسات اجتماعية-مجالية غريبة عن الوسط الحضري "البرانية" فهكذا تمثل الهجرات أحد العوامل المحددة لتغيرات التشكيلات القومية⁷.

تدهور المراكز التقليدية بالمدينة:

لقد شهدت المراكز التقليدية للمدينة القديمة تدهوراً نتيجة التحولات التي تعرفها المدينة عموماً ببلاد المغرب العربي، وحسب بعض الدارسين المختصين يمكننا تمييز ست وضعيات هي على التوالي: التجديد بواسطة التعويض الكامل الذي يشمل أفضل

⁵ السيد خالد المطري، دراسات في مدن العالم الإسلامي، معهد البحوث والدراسات العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989، ص 61.

⁶ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، ع 128، ذو الحجة 1408، أغسطس آب، الكويت، 1988، ص 308.

⁷ روبرت سكاليي، السكان والتحضر، ضمن كتاب: المغرب العربي الإنسان والمجال، إشراف جان فرانسوا تراون، ترجمة: علي التومي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط 1997، ص 219.

المناطق إيصالا والطرفية غالبا ثم التحوير الشامل، فتغيير المظهر باستعمال مواد عصرية لكن بدون أن يغير الحجم، والتعهد والإصلاح باستعمال مواد تقليدية، ثم القدم المميز لمنازل مهمة ومتداعية وأخيرا الخراب⁸.

حيث يرى BOUSQUET أن المدينة المغاربية التقليدية تمثل صرح طريف قد يسهم فيه تنظيم مفك ومقسم للمجال في بلورة نهائية لكيان محتمل أي لوحدة صيغت بفضل ربط عناصرها ببعضها البعض، فقد شيدت الحضارة في إطار بنيوي وهيمنت على تجميع هذه الأجزاء سلطة تولت المدينة، وقد فقدت هذه البنية ذات التماسك الداخلي المتين وظيفتها وجاذبيتها منذ عقود عديدة⁹. لقد أصبحت أغلب المدن التقليدية الأصلية محاطة بأحزمة من المعمار الحديث النابع من تصميم وهندسة معمارية غير مستنبطة ومتناغمة مع المنظومة الثقافية للمجتمع المحلي، فهو معمار منظم ومفك في الوقت ذاته، يؤثر على مدى تأثير المصمم بأفكار المدرسة المعمارية الغربية، كما يدين أغلبهم لميثاق أثينا عام 1934، وهذا ما يبرز تحميل البيئة المحلية مرغمة بأفكار ومعمار لا يناسبها، وهنا نجد ممارسة نوع من العنف والاعتصاب للخصوصية الثقافية المحلية.

ذلك أنه بعد موجة حركات التحرر في فترة الأربعينيات من القرن الماضي وحصول العديد من البلدان العربية على استقلالها، سرعان ما شهدت بعض المدن العربية نهضة شملت الجوانب العمرانية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، وفي خضم عملية النهوض والتطور برزت إلى مشهد ونطاق الحياة اليومية بعض العادات ونمت قيم جديدة، أثرت سلبا على عملية اندماج الإنسان الجزائري داخل المدينة خصوصا تلك الفئات المهاجرة من الريف باتجاه المدينة، مما يزيد من غربة الانتماء للمجال الحضري، ذلك أن مدنا المعاصرة تبدو: "مجرد كتلة من البشر والأشياء قلما يتقابلون أو ينظرون إلى بعضهم إلا لكي يرفضوا أو يتجاهلوا بعضهم ، ذلك أن ضياع الذات هو شرط للانتماء إلى قوم يجعل من إلغاء مادة التاريخ¹⁰.

تحولات وغياب أعضاء جسم المدينة

الحي أو "الحومة" ذلك المجال شبه العمومي الذي يعبره مسلك أو مسالك كبرى، يعد منطقة انتقالية بين المستويات الخاصة السابقة التي يجمعها ومحاور التعامل في الأسواق ومناطق الإنتاج الحرفي والصناعي، والجامع الكبير، وتتمتع الحومة بكل الوظائف وكل رموز التحضرية كوظائف الإقامة والتعامل التي تؤديها الأنهج الرابطة بين الأزقة وكوظائف الاتجار "الفرن العادي وحوانيت التغذية العامة والمطحنة والمجزرة" وتوفير الخدمات كالمدرسة القرآنية "الكتاب" والوراقة والمدرسة الابتدائية ومحل التمرريض والوكالة "النزل"، كما تؤدي الحومة دور المحول الاجتماعي "الزاوية وأماكن التبعد" والمسجد "والمسجد الجامع والحمام والحلاق وخبلة الحزب والمقهى" فهكذا تكون الحومة من خلال مناخها مجالا معيشا¹¹.

تحولات علاقات الجيرة:

حظي موضوع علاقات الجوار بأهمية خاصة من جانب علماء الأنثروبولوجيا الحضرية الذين ركزوا على دراسة الوحدات الاجتماعية الصغرى داخل النطاق الحضري، وأهم ما ميز دراساتهم حول الجيرة السكنية في مختلف البيئات الحضرية هو الانخفاض في مستوى المعيشة والدخول الاقتصادية، وتختلف هذه من حيث الاهتمامات البحثية فبعض الدراسات تناولت الجيرة السكنية كوحدة إثنوغرافية يدرس الباحث من خلالها بعض المشكلات التي ترتبط ببعض الموضوعات مثل الجماعات الأولية، الجماعات العرقية، الطبقة، بينما اهتمت بعض الدراسات الأخرى بالجيرة السكنية ذاتها¹².

⁸ جان ماري ميوساك، مدن وحضر، ضمن كتاب: المغرب العربي الإنسان والمجال، إشراف جان فرانسوا تراون، ترجمة: علي التومي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص450.

⁹ BOUSQUET C. *Mutations urbaines en Algérie; le cas de Béni Ysguen au M zab*; T3.Tour ; p350.

¹⁰ برهان غليون، التغيير المكاني والاجتماعي، ترجمة محمد علي مقلد، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد39، حزيران 1986.

¹¹ جان ماري ميوساك، مرجع سابق، ص449.

¹² محمد عباس إبراهيم، التنمية والعشوائيات الحضرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص213.

ومن الدراسات التي أجريت حول الجيرة السكنية ومدى تأثيرها بعلاقات الروابط الإثنية، والعمل والثقافة الفرعية الأنثروبولوجي **H/Gans** عندما درس الطبقة الإيطالية العاملة في إحدى المجاورات السكنية في مدينة بوسطن حيث توصل إلى الإطار العام الذي يحكم علاقات المهاجرين إلى المناطق الحضرية الفقيرة مكون من الخصائص التي تميز الحياة في القرية كالعلاقات الأولية، النقص في الخلوة الاجتماعية، الرغبة في الاندماج الاجتماعي، الميل نحو تمجيد الثقافة الفرعية والبنية القبلية التقليدية¹³. كما توصلت بعض الأبحاث والدراسات الأنثروبولوجية إلى أن علاقات الأشخاص في المناطق العشوائية تنسم بضعف التنظيمات والعلاقات الرسمية، في حين أن الضبط الاجتماعي غير الرسمي يقوم أيضا بدور ضئيل. كما أن شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة على الانتماء القرابي والصداقات والوحدة الإثنية أو العرقية ربما يكون لها دور في الأساس الأقوى لمسألة علاقات الجوار في الإقامة الحضرية. تسهم الأنثروبولوجيا الحضرية بنصيب وافر في تطبيق المناهج الاثنوغرافية في دراسة البيئة الحضرية، وذلك من خلال التركيز على الوصف والتحليل والتفسير للخصائص والسمات الخاصة بالمجتمع الحضري المحلي، وعليه فقد وصل

الأنثروبولوجيين إلى درجة عالية من الكفاءة في استخدام تلك المناهج مستعينين في ذلك أيضا بالبيانات والطرق الإحصائية والكمية والانتفاع بها في مجالات الدراسة والتطبيق. وفي ضوء ذلك يستطيع الأنثروبولوجيون الحضريون أن يقبلوا ويقدموا أنماطا بنائية للتحليل موجهة في الأساس نحو البناء الحضري الكلي، وإن كانت في أساسها تهتم بمجتمعات أو مناطق حضرية بعينها، ومن ثم دراسة وإيجاد العلاقات المتبادلة التي تربط بين المجتمع الحضري الكبير من جهة، والمجتمعات الحضرية المحلية من جهة أخرى¹⁴. ومن الدراسات الرائدة في مجال دراسة المدينة وتفسير وتحليل الحياة الحضرية إسهامات لويس ويرث **Wirth** والتي تبلورت في نظريته في أن المجتمع الحضري يتميز بالحجم، والكثافة، واللاتجانس، وتلك محركات أو معايير أساسية لفهم البنية الحضرية والأنماط السلوكية.

وفي ضوء تشخيص مشكلات المدينة المعاصرة يرى بعض الباحثين أن هناك مشكلات نازلة وطارئة على المدينة في العالم العربي منها ما سمي بالحصار المدني الجديد وهو نوع آخر من تضيق المساحة الفيزيائية والنفسية داخل المدينة، انه عصر جديد سوف يؤدي إلى انطواء المدينة وتوقعها ثقافيا واجتماعيا، وهذا الحصار الذي سيزيد من معاناة المدن الكبيرة على وجه الخصوص، وهو ما يدفع من جانب ابستمولوجي للبحث عن تعريفات جديدة للمدينة غير تلك المألوفة التعامل¹⁵. كما يؤكد روبرت ردفيلد على أن اللاتجانس وتعدد قنوات الاتصال هما الأساس المميز في فهم المدينة والحياة الحضرية، ومن جانبه خلص ويرث إلى أن الحضرية كأسلوب في الحياة تتميز بالنزعة المادية والعلمانية، وعدم وضوح المعايير الأخلاقية، إلى جانب ظهور الجماعات الثانوية، وتفتت الأدوار تحت مظلة التخصص وتقسيم العمل والأداء، لكنه إلى جانب ذلك رأى أن الحياة في المدينة وما بها من علاقات اجتماعية متبادلة في إطار المصلحة والمنفعة تتميز بالسيولة والانسائية والدقة، ويرى أن ذلك كله من سمات المجتمع الحضري¹⁶.

وقد وجدت مداخل متعددة للتحليل والتفسير فيما يخص الحياة الاجتماعية بأبنيتها وتنظيماتها المختلفة وتفاعلاتها داخل المدينة، وايكولوجية المدينة، إضافة إلى التركيز على دراسة الحياة الثقافية للمدينة وما تشتمل من أنساق متباينة، والسعي لتحليل

¹³ محمد عباس إبراهيم، مرجع سابق، ص 214.

¹⁴ محمد عباس إبراهيم، مرجع سابق ص 184.

¹⁵ مشاري عبد الله النعيم، الهوية في وسط متحول: تجربة التغير في البيئة السكنية السعودية ، ندوة الإبداع والتميز في النهضة العمرانية بالمملكة خلال مائة عام، 2004، ص 2

¹⁶ محمد عباس إبراهيم، مرجع السابق، ص 184.

وتفسير والحياة الحضرية باعتبارها نسقا من القيم والتوجهات السلوكية، التي تطرأ على الإنسان الحضري في ضوء أنساق التنشئة والتربية والتثقف.

ويرى العديد من الباحثين أن من نتائج التحولات الحضرية المتسارعة هو بروز إفرزاتها في أشكال مختلفة لعل من أبرزها تأثير نفسية الفرد داخل الوسط الحضري وتعطل كفاءته نتيجة الشعور الدائم والمستمر بالتعب والإرهاق بسبب الازدحام والضغط الايكولوجي داخل المدينة، وكذا الشعور بالضيق والقلق والاختناق جراء الانتشار الواسع للجداريات والأسوار الإسمنتية التي ابتلعت كل مجال فسيح داخل المدينة، إضافة إلى كثرة الاغتراب التي أفضت إليها التحولات العالمية التي تطرأ على نسيج قيم الحياة الحضرية، ومن ثم تقضي إلى انسحاب فئات من نمط الحياة القائم بقيمه، ويشكلون لأنفسهم ترابطات نسقية خاصة، يعيشون فيها بعيدا عن متطلبات النسق الفكري والثقافي الجديد للحياة بالمدينة، وهذا ما يميز من حدة الاغتراب وعدم الشعور بالانتماء¹⁷.

ملاح ومؤشرات التحول العمراني في الجزائر وإشكالية فقدان الهوية:

إن المتطلع إلى التطورات والتغيرات المتلاحقة عبر العصور ابتداء من فجر التاريخ كان كل عصر يأخذنا قدما على نحو أكثر سرعة من العصر الذي سبقه. فالعصر الحجري ظل قائما لملايين السنين، إلا أن عصور المعادن التي تلتها قد دامت لفترة لا تزيد عن خمسة آلاف سنة. وقد قامت الثورة الصناعية بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر، أي أنها استغرقت 200 عام على وجه التقريب، واحتل عصر الكهرباء 40 عاما بداية من أوائل القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية، أما العصر الالكتروني (عصر الكمبيوتر) فلم يدم سوى 25 عاما بالكاد، في حين بلغ عصر المعلومات 20 عاما من عمره مع نهاية التسعينات.

ففي مطلع الألفية الثالثة تغيرت ملامح المدينة العربية، ووجدت نفسها في مواجهة تحديات كبيرة تتمثل في نقص معرفي متراكم، ظهرت ملامحه بشكل حاد مع انتشار تقنيات الاتصالات والمعلومات الحديثة، إن المدن في الوقت الحالي تشهد تحولات كبيرة من حيث الشكل الفيزيقي والتوسع العمراني والامتداد المكاني، فإذا كانت المدينة عقب ظهور الثورة الصناعية قد تحولت إلى بنية ونمط يختلفان جذريا عن مدينة ما قبل الصناعة، فإن المدينة الحديثة بدورها تختلف أيضا اختلافا كبيرا عن مدينة الثورة الصناعية¹⁸. لقد عرفت تقنيات الاتصال والمعلومات خلال السنوات الأخيرة تطورات سريعة وتأثيرات مباشرة على نمط الحياة الإنسانية سواء على الصعيد الاجتماعي أو الثقافي وكذا على المستوى الاقتصادي وذلك بسبب الثورة الرقمية التي عرفها عالمنا المعاصر لا سيما في الدول المتقدمة، هذا الأمر أفرز مجموعة من التحديات خاصة للدول النامية، تحديات ومخاطر أصبحت تمس بالأمن

الاجتماعي، والانتماء الثقافي والحضاري، إضافة إلى تحدي اقتصادي يتعلق بجعل التنمية الاقتصادية مرتبطة إلى حد كبير بمدى قدرة الدول على مسايرة هذه التحولات والتحكم فيها قصد استغلال الإمكانيات المتوفرة والمتجددة. ففي عصر العولمة تشهد المدينة سرعة هائلة في توسعها المساحي، ووفرة كبيرة في نموها الحضري فاق مداها كل التوقعات، وتجاوزت في خطاها كل ما قد أعد لها وخطط من أجلها، وقد نتج عن النمو السريع للسكان توسع كبير في القطاعات الإسكانية والصناعية والتجارية وقطاعات الخدمات الأخرى. وقد تأثر العالم سريعا بالأحداث العالمية وبالأخص منذ أحداث 11 سبتمبر وما تبعها من عمليات إرهابية وتفجيرات مستمرة في معظم المدن الغربية، وانعكس ذلك بالسلب على معظم أفراد المجتمع العربي والغربي على

¹⁷ أحمد النكلاوي وكمال التابعي، مشكلات المجتمع المصري، دار النصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص149.

¹⁸ علي زيد الزعبي، المدينة والعولمة، قراءة تحليلية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع 95، السنة 24، صيف 2006، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، 2006، ص21.

السواء وانحصارهم في مدنهم، ومن ثمة فإننا نعيش في عصر من الحدود الجديدة للمدن، والتي سترسم خرائط جيو - اجتماعية تتوزع فيها المدن إلى نقاط حمراء وأخرى خضراء حسب ما يسكن تلك النقاط¹⁹.

وكرد فعل لظهور فكرة الكونية، و لما حدث من كوارث العمارة والحداثة منذ الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، فقد أدى هذا إلى بروز فرع جديد في مجالات البحث الأنثروبولوجي أطلق عليه مسمى **أنثروبولوجيا العمارة**، فقد اشتغل واهتم بما حدث من تغيرات أدت إلى تدهور العمارة، وعدم الاهتمام بالنواحي الجمالية والفنية في مكونات البناء والأخذ بالعمارة النمطية التي تعتمد أساسا على الأنماط المتكررة الوافدة من المباني الغير محلية التي لا تتلاءم مع الظروف البيئية والثقافية، ذلك لأن العمارة لا تنفصل عن السياق الثقافي والاجتماعي والتاريخي في أي مجتمع من المجتمعات، فتشييد المباني والعمارة والتخطيط المعماري للإقليم أو المجتمع المحلي يكون على درجة كبيرة من الأهمية لما له من دلالة في مجال العمارة التقليدية والحديثة ولا يمكن للباحث إغفال هذه الدلالة، فما يقوم الإنسان بتشبيده لا يرتبط بالناحية الجمالية والفنية فحسب، وإنما يرتبط بالإنسان نفسه²⁰.

وقد كشفت المعرفة الأنثروبولوجية عن المعرفة التي في أذهان الناس عن كيفية تشييد المسكن بما يتفق وظروف البيئة الطبيعية والمناخية، فجاء تصميم المسكن تعبيراً عن هذه المعرفة من حيث طريق البناء، والمواد المستخدمة، فالقائم بالتصميم والتنفيذ هو صاحب المسكن الذي يكون لديه المعرفة بما يتلاءم مع حياته واحتياجاته، وجعلت تلك المعرفة المحلية المسكن ملائماً إيكولوجياً، فالفراغات الكثيرة والفتحات داخل المسكن كشفت عن عدم المعاناة من سوء التهوية وسوء الإضاءة، وتوافر الراحة الحرارية، والإضاءة المناسبة والتهوية لكل من المسكن والشارع، والاعتماد على الطاقة المتوافقة مع البيئة، وإحاطة المسكن بسور عال يحقق الخصوصية مع عدم العزلة، وحجب الرؤيا عن الداخل، وإتاحة الحرية لأفراد المسكن، وعدم التعدي على حرية المسكن وأفراده، كما يحقق المسكن درجة عالية من المواءمة بين الطبيعة والحماية من تقلباتها، والاستفادة منها دون الإضرار بها، كما يتم اختيار اللون المناسب، ومادة البناء المواتية، ويقام السقف بمواد محلية، وكل هذا يمكن من التكيف مع البيئات الحارة والساخنة²¹.

وفي دراسته حول ثقافة الواحة يرى يوسف نسيب من خلال أبحاثه حول منطقة بوسعادة، واشتغاله بقصر مدينة بوسعادة العتيق الذي يمثل إحدى العماائر التقليدية للمدن الصحراوية الجزرية، فيرى أن العمارة التقليدية: "هي المعبرة بشكل واضح عن القيم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وعن التواصل بين الإنسان ومحيط عيشه"²² (26)

مقاربة الأنثروبولوجيا الحضرية لانعكاس مكونات البنى اللاشعورية على نوعية الحياة وطبيعة العمارة

وفي ضوء التشخيص الأنثروبولوجي الحضري يمكننا أن نقدم ولو قراءة أو تأويل أولي متواضع لانعكاسات مكونات الذهنية المجتمعية والفردية، وكذا الحالة السيكو - اجتماعية للجزائري ومدى انعكاس ذلك على التصميم المعماري وكذا أشكال ونوعية التفاعل داخل المجال الحضري.

- إن الموقع الجغرافي للجزائر والمغرب العربي عموماً جعله منطقة جغرافية حيوية كانت ممراً للعديد من التيارات الفكرية وكذا الاجتياحات الاستعمارية منذ زمن بعيد، فعاش سكان الجزائر على مدار زمن طويل تحدي الخطر الخارجي الزاحف، وهو ما أثر على الجزائري في ذلك الوقت على أن يختار المكان الطبيعي بمكوناته التضاريسية الوعرة المدافعة فأقام مدن في شكل حاميات عسكرية هدفها تحقيق الحصانة والدفاع.
- لقد كان عامل الدفاع عن الذات في وجه التحديات الخارجية سبباً في فرض نوع من ثبات الجزائري عند إقامة الحواضر على المورثات والمسلمات في العمارة، مما تسبب في الانغلاق وعدم الانفتاح وممارسة التجديد.

¹⁹ علي زيد الزعبي، مرجع سابق، ص 23.

²⁰ عليية حسين، العمارة الواحاتية، مدخل لدراسة الثقافة والمجتمع، ضمن: كتاب قضايا منهجية معاصرة، كلية الآداب، قسم

الاجتماع، جامعة القاهرة، ص 329، ص 330.

²¹ عليية حسين، مرجع سابق، ص 335 - 336.

- إن الاستفادة من الدراسات والمخططات العلمية في تخطيط المدينة الجزائرية المعاصرة في جزائر الاستقلال وما بعد ذلك، لم يحصل بالقدر الكافي، فظلت إشكالات المدينة مستمرة، بل حتى مشكلات التصميم حققت الاستمرارية في الفضاءات العمرانية المستحدثة، كالعشوائية في شق المسالك بين الانقطاع والانفتاح غير المنطقي، واعوجاج الدروب، الاستيلاء على الفضاءات العامة المشتركة، الغش في المساحات والمسالك العمومية... وهذا يعكس ذهنية تبعث على تصرفات ريفية قبلية داخل المدينة.
- استمرار سلوكات الحياة الريفية وقيم البداوة دون تغيير في المجال الحضري مما ترتب عنه زيادة ظاهرة الترييف داخل المدينة، خصوصاً النسيج العمراني على الضواحي.
- نزعة وجشع الحيازة ووضع اليد على العقار أفقد المعمار داخل المدينة الاهتمام والذوق الجمالي اللازم والمناسب للمظهر الذي تتبدى به المدينة لناظرها أو زائرها.

ثر على الجزائري في ذلك الوقت على أن يختار المكان الطبيعي بمكوناته التضاريسية الوعرة المدافعة فأقام مدن في شكل

- حاميات عسكرية هدفها تحقيق الحصانة والدفاع.
- لقد كان عامل الدفاع عن الذات في وجه التحديات الخارجية سبباً في فرض نوع من ثبات الجزائري عند إقامة الحواضر على المورثات والمسلمات في العمارة، مما تسبب في الانغلاق وعدم الانفتاح وممارسة التجديد.
- إن الاستفادة من الدراسات والمخططات العلمية في تخطيط المدينة الجزائرية المعاصرة في جزائر الاستقلال وما بعد ذلك، لم يحصل بالقدر الكافي، فظلت إشكالات المدينة مستمرة، بل حتى مشكلات التصميم حققت الاستمرارية في الفضاءات العمرانية المستحدثة، كالعشوائية في شق المسالك بين الانقطاع والانفتاح غير المنطقي، واعوجاج الدروب، الاستيلاء على الفضاءات العامة المشتركة، الغش في المساحات والمسالك العمومية... وهذا يعكس ذهنية تبعث على تصرفات ريفية قبلية داخل المدينة.
- استمرار سلوكات الحياة الريفية وقيم البداوة دون تغيير في المجال الحضري مما ترتب عنه زيادة ظاهرة الترييف داخل المدينة، خصوصاً النسيج العمراني على الضواحي.
- نزعة وجشع الحيازة ووضع اليد على العقار أفقد المعمار داخل المدينة الاهتمام والذوق الجمالي اللازم والمناسب للمظهر الذي تتبدى به المدينة لناظرها أو زائرها.
- لقد كانت الأزقة بالمدن العتيقة رغم ضيقها غير أنها منسجمة مع الكتلة المعمارية العامة، وكانت مفعمة وملهيّة بالأنشطة منها حيوية ساكنيها، غير أن شارع المدينة الجزائرية المعاصرة اليوم أصبح في العديد من المدن مجال مفعم بالمشكلات المادية، والمشكلات اللامادية.
- معاناة الجزائري ساكن المدينة من التمزق العاطفي من جراء فقدان الذاكرة الحضرية فيظل في معاناة الحنين لماضي سرق منه، ويعاني من فقدان فضاءات التحرك والانفتاح، مما يدخله في حالة من الشعور بفقدان هوية خاصة ومصادرة لحرية كانت كائنة، وهذا بسبب الخلط الناتج عن الهجرة العشوائية وعدم التجانس بين الساكنة.

خاتمة

إن العمارة في مظهرها انجاز مادي منظور محسوس ولملموس، ولكن في جوهرها إبداع يترجم مختلجات الذات الجماعية في رؤيتها الوجودية، وطريقتها الحياتية، كما يعبر الانجاز المعماري عن الحالة النفسية للمجتمع وذوقه الفني الجمالي، وتطلعاته في الزمن المستقبلي، وهذا ما يجعل العمارة مؤشراً لخاصية هوياتية وانتماء حضاري، ونظراً لهذه الوظائف العديدة والمفيدة للعمارة في حياة الإنسان والمجتمع، كان المنظور الصائب أن يقع التفسير المناسب بين العمارة الأصيلة وما نتبناه من العمارة المعاصرة في عملية الأخذ والاقتراس والتحوير والتطوير بدافع الذوق الجمالي الأصيل، أو بدافع الحاجة والوظيفة التي يكتسبها تقسيم وتخطيط جسم المدينة، دون إهمال الخصوصية الثقافية في ظل الموجة الثقافية المعولمة.

و من الآليات الكفيلة لفهم الأبعاد المادية والجمالية والنفسية والهوياتية للعمارة بناء ووظيفة وبعدا ومؤشرا إنتمائيا وحضاريا، هو ضرورة إدخال تعديلات في الرؤى والتصورات وكذا برامج التدريس والتكوين، فلا يمكننا النظر للعمارة كنسج مادي من خلال

مخططات تقنية تقام وتجسد في هياكل خالية من الجوانب المعنوية والإنسانية، والنظر للتراث المعماري ككتلة مادية عتيقة تستهلك ميزانيات للترميم والرعاية المستمرة، أو مجالا بحثيا للأثريين، أو غالبا ما تكون ضحية للإهمال والنسيان والنهب.

وإنما المدينة العتيقة هي جزء من الذاكرة المجتمعية وشاهد مادي يسجل حضورا على مدار الزمن، ويحقق وظيفة الاستمرارية والتواصل بين الأجيال الحضرية، وقناة ناقلة للخبرات وآليات علاج مشكلات الوسط الحضري وتفاعلاته، وفي ظل هذا لا يمكننا أن نظل مستمرين في النظر للعمارة كجزء من أقسام الهندسة المعمارية فحسب وإنما العمارة ذات أبعاد متعددة فالعلاقة بين المادي والإنساني في المعمار لا ينفصلان، فالهوة بين كليات الهندسة والعلوم الاجتماعية في موضوع العمارة تستوجب تقليصها بل التجسير والتوصيل وهذا من خلال استدعاء الدور المميز للأنثروبولوجيا الحضرية وأنثروبولوجيا العمارة.